الحافظ ابن كثير

البداية والنهاية

منشورات مكتبة المعارف بيروت

[ص: 440] ذكر مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من المدينة إلى البصرة بدلا عن مسيره إلى الشام

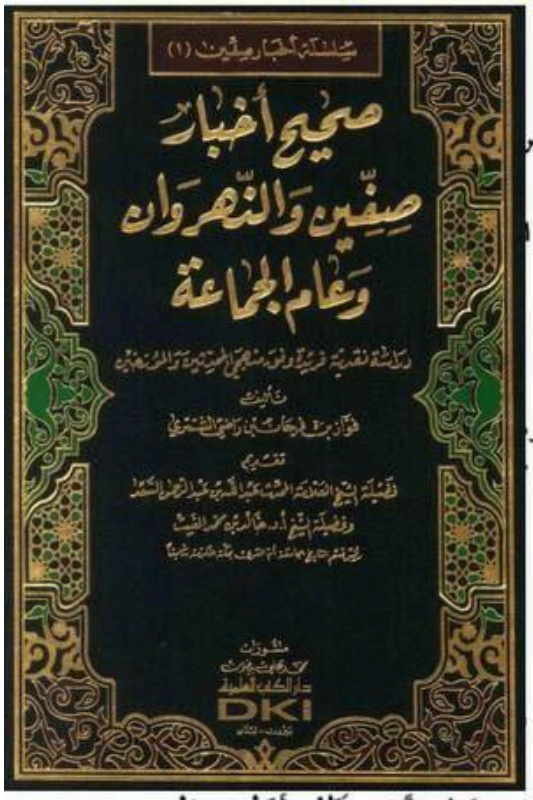
بعد أن كان قد تجهز قاصدا الشام ، كما ذكرنا ، فلما بلغه قصد طلحة والزبير البصرة ، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البصرة ليمنع أولئك من دخولها إن أمكن أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها ، فتثاقل عنه أكثر الناس ، واستجاب له بعضهم .

قال الشعبي : ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين ، ليس لهم سابع . وقال غيره : أربعة . وذكر ابن جرير وغيره قال : كان ممن استجاب له من كبار الصحابة أبو الهيثم بن التيهان ، وأبو قتادة الأنصاري ، وزياد بن حنظلة ، وخزيمة بن ثابت . قالوا : وليس بذي الشهادتين ، ذاك مات في زمن عثمان ، رضي الله عنه . وسار علي من المدينة نحو البصرة على تعبئته المتقدمة إلى الشام ، غير أنه استخلف على المدينة تمام بن عباس ، وعلى مكة قثم بن [ص: 441] عباس ، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين . وخرج علي من المدينة في نحو من تسعمائة مقاتل ، وقد لقي عبد الله بن سلام ، رضي الله عنه ، عليا وهو بالربذة ، فأخذ بلجام فرسه وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا . فسبه بعض الناس فقال علي : دعوه فنعم الرجل من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وجاء الحسن بن علي إلى أبيه في الطريق فقال : لقد نهيتك فعصيتني ، تقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك . فقال له علي : إنك لا تزال تحن على حنين الجارية ، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك ؟ فقال : ألم آمرك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلا يقتل وأنت بها ، فيقول قائل أو يتحدث متحدث ؟ ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان حتى يبعث إليك أهل كل مصر بيعتهم ؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فعصيتني في ذلك كله ؟ فقال له علي : أما قولك أني أخرج قبل مقتل عثمان ، فلقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار ، فكرهت أن يضيع هذا الأمر ، وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه ، فتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال : ليست هاهنا . حتى يحل عرقوبها فتخرج ، [ص: 442] فإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعنيني ، فمن ينظر فيه ؟ فكف عني يا بني .

فعليٌّ ﷺ أراد التأكُّد من سبب سؤاله (مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا؟) فإنْ كان لأجلِ مَصْلَحَةِ الحَرْبِ: فالحرب خُدْعَةٌ، فَيُمْكِنُ لِعَلِيٍّ ﷺ أنْ يُوَرِّيَ أو يفعل ما تقتضيه الحرب، ولكن قال قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ: (دِينَنَا دِينَنَا)، أي نريد النجاة بديننا من الفتن، فلهذا قال عليٌّ ﷺ: «مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ».

وهناك مِثَالٌ وَرَّى فيه أميرُ المؤمنين عليٌّ ﷺ على ما تقتضيه الحربُ مِنَ الخُدْعَةِ، ،

[٧١] أَخْرَجَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي "الْمَشْيَخَةِ": حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْغَنَوِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أُمَيَّةُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو مِحْصَنٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلِمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا ﷺ يَقُولُ بِمَسْكِنَ(١) لَا أَغْسِلُ رَأْسِي بِغِسْلٍ(٢) حَتَّى آتِيَ الْبَصْرَةَ وَأُخَرِّقَهَا، وَأَسُوقَ(٣) النَّاسَ بِعَصَايَ إِلَى مِصْرَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا مَسْعُودٍ الْبَدْرِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: "إِنَّ عَلِيًّا يُورِدُ الأُمُورَ مَوَارِدَهَا، لَا تُحْسِنُونَ تُصْدِرُونَهَا(٤)، عَلِيٌّ لا يَغْسِلُ رَأْسَهُ بِغِسْلٍ، وَيَأْتِي الْبَصْرَةَ(٥) وَلَا يُخَرِّقُهَا، وَلا يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَا(٦) إِلَى مِصْرَ، عَلِيٌّ رَجُلٌ أَصْلَعُ، إِنَّمَا رَأْسُهُ مِثْلَ الطَّسْتِ(٧)، إِنَّمَا حَوْلَهُ زُغَيْبَاتٌ(٨)، أَوْ قَالَ: شُعَيْرَاتٌ"(٩).



---

(١) مَسْكِنُ: بكسر الكاف، هو موضع، قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير بغداد. معجم البلدان (٥/ ١٢٧) (٢/ ٥٠٣).

(٢) أي: لا أغسل شَعْرَ رَأْسِي بِغِسْلٍ. وَالغِسْلُ: بكسر الغين، هو مَا يُغْسَل بِهِ ا انظر: لسان العرب (١١/ ٤٩٤) مادَّة: غسل.

السِّدْرُ: شجر معروف.

والخِطْمِيُّ: بكسر الخاء وفتحها، نبات زهري من الفصيلة الخُبَّازيَّة.

وإذا جففت أوراق السِّدْرِ أو الخِطْمِيِّ وَضُرِبَتْ بالماء، تظهر منهما رغوة، و كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي (٢/ ٩٤) معجم اللغة العربية المعاصرة (١/

(٣) لفظ أبي بكر الشافعي: (ثُمَّ أَسُوقَ).

(٤) لفظ أبي بكر الشافعي: (وَلا تُحْسِنُونَ أَنْ تُصْدِرُوهَا).

(٥) لفظ أبي بكر الشافعي: (وَلَا يَأْتِي الْبَصْرَةَ).

(٦) لفظ أبي بكر الشافعي: (بِعَصَاهُ).

(٧) الطَّسْتُ: إناء كبير مستدير من نُحاس أو نحوه يُستعمل للغسيل. معجم اللغة الوسيط (٢/ ٥٥٧).

(٨) زُغَيْبَاتٌ: تصغير "زَغَبَات". قال الأَصْمَعِيُّ: الزَّغَبُ - بِفَتْحِ الزَّاي وَالغَيْنِ -: صِغَارُ الشَّعْرِ وَلَيِّنُهُ، أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنَ الصَّبِيِّ، وَمِنَ الشَّيْخِ حِينَ يَرِقُّ شَعْرُهُ. البارع في اللغة ص (٣٦٣) مادَّة: (الغين والزاي والباء في الثلاثي الصحيح).

(٩) مشيخة يعقوب بن سفيان (١٠٢) إسناده حسن. عبد الله بن سَلِمَةَ: صدوق تغير حفظه، لكن روايته لهذا اللغز الدقيق يدل على أنه حفظه، وقد قال عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ: (كان عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلِمَةَ يحدثنا، فنعرف وننكر، كان قد كبر). أقول: هذا الخبر من القسم الأول (الذي يُعرف).

أَبُو عَبْدِ اللهِ الْغَنَوِيُّ: هو مُعَاذُ بْنُ أَسَدِ بْنِ أَبِي شَجَرَةَ الْمَرْوَزِيُّ، ثقة، من العاشرة، توفي سنة مئتين وبضع وعشرين.

وقد خولف يعقوب بن سفيان في إسناده، ،

فرواه مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ الْقُسْطَانِيُّ، لكنه أبدل راويين بالإسناد بغيرهما.